



الإمام برهان الدين

تربوية

ترجمته:

برهان الدين أو برهان الإسلام الزرنوجي (بتشديد ورفع الزاي) فقيه حنفي عاش في شرق الدولة الإسلامية في النصف الثاني من القرن السادس الهجري وأوائل القرن السابع، في بلد يسمى زرنوج وهي من بلاد تركستان. وكل من ترجم له يورد أنه من تلاميذ برهان الدين المرغيناني الفرغاني (وهما من قرى خوارزم فيما وراء النهر) صاحب الهداية في فروع الفقه المتوفي سنة 593هـ. وقد اكتسب شهرته من كتابه القيم الذي سماه "تعليم المتعلم في طريق التعلم".

يعد هذا المؤلف من التراث التربوي الإسلامي الأصيل الذي يقدم نظرات أصيلة في معنى العلم وطرائق اكتسابه، فيكون درة ثمينة في عقد ما أثلته زمرة من علماء المسلمين في بسط ما ينبغي أن يكون عليه المتعلم من أمثال أبي حنيفة النعمان، وأبي بكر محمد بن عمر الترمذي البلخي، ومحمد بن سحنون، والقابسي، وغيرهم.

وقد أورد غير واحد أهمية الكتاب ومما قيل فيه:

" وهو نفيس مفيد " محيي الدين عبد القادر بن أبي الوفاء (ت778هـ).

" كتاب نفيس مفيد مشتمل على فصول، قليل الحجم، كثير المنافع " عبد الحي بن محمد بن عبد الكريم اللكنوي الهندي (ت1304هـ)

ونفس المعلومات أوردتها غير هذين، حتى إنه عرف بهذا الكتاب فاقترن اسمه به، ولقد اعتنى بشرحه وطبعه علماء التربية المسلمين والمستشرقين على حد السواء فطبع في مصر والأستانة ومرشد آباد وتونس وقازان وألمانيا وترجم إلى اللاتينية والتركية.

وها نحن نورد طرفاً من أهم ما عرضه المصنف في هذا الكتاب من نظرات تربوية في كفايات التعلم.

في ماهية العلم وفضله والنية فيه:

العلم عند الإمام الزرنوجي خصيصة إنسانية بها يستحق الإنسان شرفه، إذ بفضلها ظهر فضل آدم عليه السلام على الملائكة الأطهار أنفسهم. ويذهب في هذا الصدد إلى أن المقصود بالعلم الوارد في حديث الرسول صلى الله عليه وسلم: "طلب العلم فريضة على كل مسلم" ليس كل العلم، إنما هو علم الحال حيث "إن أفضل العلم علم الحال، وأفضل العمل حفظ الحال" فكما على المسلم أن يعلم ما يقيم به فروضه وواجباته التي لها أحوالها الموقوتة والمظروفة فواجب عليه أن يعلم علم أحوال القلوب أيضا توكلًا وإنابة وخشية ورضاء إذ هذه واقعة في جميع الأحوال.

قال الشافعي: "العلم علمان: علم الفقه للأديان، وعلم الطب للأبدان وما وراء ذلك بلغة مجلس" وقال أبو حنيفة: "ما العلم إلا للعمل به، والعمل به ترك العاجل للأجل"

ثم يركز الزرنوجي على فضل النية في جميع الأفعال، حيث ذكر إن على المتعلم أن ينوي بطلب العلم رضا الله، والدار الآخرة، وإزالة الجهل عن نفسه، وعن سائر الجهال، وإحياء الدين، وإبقاء الإسلام فإن بقاء الإسلام بالعلم"، كما على المتعلم أن يقصد بالعلم "الشكر على نعمة العقل، وصحة البدن، ولا يقصد به إقبال الناس عليه ولا استجلاب حطام الدنيا والكرامة عند السلطان وغيره" واستشهد في ذلك بقول القائل:

من طلب العلم للمعاد فاز بفضل من الرشاد
فيا لخسران طالبيه لنيل فضل من العباد

1- اختيار العلم والأستاذ والشريك:

يضع الزرنوجي مواصفات في اختيار المادة التعليمية والأستاذ المعلم والشريك المصاحب أثناء عملية التعلم، فبالنسبة للمادة التعليمية ينبغي لطالب العلم أن يختار من "كل علم أحسنه، وما يحتاج إليه في الحال والمآل"

ويدعو إلى ترك الانشغال بالجدل لما فيه من ابتعاد عن الفقه وتضييع للعمر وإيراث للوحشة والعداوة، ويفوض اختيار ما يتعلم للأستاذ لتجربته إذ هو أعلم بما ينبغي لكل واحد، وما يليق بطبيعته".

أما بالنسبة للأستاذ المعلم فيضع ثلاث مواصفات أساسية: "السن، والورع، والعلم" فيختار المتعلم من الأساتذة الأعلام والأورع والأسن كما اختار أبو حنيفة النعمان حماد بن أبي سليمان بعد التأمل والتفكير وقال: وجدته شيخا وقورا حليما صبوراً وقال: ثبت عند حماد بن أبي سليمان فثبت".

إن الثبات والصبر أصلان عظيمان في التعلم عند الزرنوجي، من هنا وجب على طالب العلم "أن يثبت ويصبر على أستاذ وعلى كتاب حتى لا يتركه أبتر، وعلى فن حتى لا يشتغل بفن آخر قبل أن يتقن الأول، وعلى بلد حتى لا ينتقل إلى بلد آخر من غير ضرورة، فإن ذلك كله يفرق الأمور، ويشغل القلب، ويضيع الأوقات".

وأيضاً على المتعلم أن يصبر على هوى نفسه وعلى المحن والبليات إذ خزائن المنى على قناطر المحن:

ألا لا تنال العلم إلا بستة سأنبئك عن مجموعها ببيان
ذكاء وحرص واصطبار وبلغة وإرشاد أستاذ وطول زمان

أما في ما يرتبط باختيار الشريك المصاحب فعلى طالب العلم أن يختار "المجد والورع وصاحب الطبع المستقيم والمتفهم، ويفر من الكسلان والمعتل والمكثار والمفسد والفتان":

لا تصحب الكسلان في حالاته كم صالح بفساد آخر يفسد
عدوى البلید إلى الجليد سريعة كالجمر يوضع في الرماد فيخمد

2- تعظيم العلم وأهله:

يركز الإمام الزرنوجي على أهمية توقير أهل العلم، حيث يرى أن نيل العلم والانتفاع به لا يتم إلا بتعظيم العلم ذاته، ومن تعظيم العلم تعظيم المعلم، ومن علامات ذلك ألا يمشي المتعلم أمام المعلم، ولا يجلس مكانه، ولا يبتدئ بالكلام عنده إلا بإذنه، ولا يكثر الكلام عنده ويراعي الوقت فلا يدق الباب على المعلم إنما يصبر حتى يخرج".

ويحذر الزرنوجي هنا من مغبة إذاية الأستاذ حيث إن ذلك يحرم بركة العلم:

إن المعلم والطبيب كليهما لا ينصحان إذا هما لم يكرما
فاصبر لدائك إن جفوت طبيبه واقنع بجهلك إذا جفوت المعلما

ويشدد الزرنوجي على مسألة التعظيم والحرمة، حيث على المتعلم أن يستحضرهما وإن سمع المسألة الواحدة والكلمة الواحدة ألف مرة حتى لقد قال: "من لم يكن تعظيمه بعد ألف مرة كتعظيمه في أول أمر فليس بأهل العلم... وإنما يتأتى ذلك بالاحتراز من الأخلاق الذميمة التي يشبهها بالكلاب المعنوية خاصة التكبر الذي لا يحصل العلم معه أبداً.

3- الجد والمواظبة والهمة:

يوصي الإمام الزرنوجي بعد ذكر ما مضى بالجد والمواظبة- جد المتعلم، وجد الأستاذ وجد الأب - (يقصد الوالي القائم على أمر المتعلم)، إذ إن طالب العلم محتاج إلى المواظبة على الدرس والتكرار لأنه : لكل شيء آفة، وآفة العلم ترك الجهد والتكرار"، كما هو محتاج إلى الهمة العالية إذ بها يطير كالطير يطير بجناحيه ، وعليه أن يختار الأوقات للدرس كأول الليل وآخره ووقت السحر وما بين العشائين ويعمل على اغتنام أيام حدائته وعنفوان شبابه، وليحذر الكسل والخمول، وقد أشار الزرنوجي هنا إشارة لطيفة بليغة حين قال : " وقد يتولد الكسل من كثرة البلغوم والرطوبات، وطريق تقليله تقليل الطعام " .

ورغم تأكيد على معنى الجد والحزم والمواظبة فإنه أوصى بالرفق إذ الرفق عنده أصل عظيم في جميع الأشياء متمثلاً قول النبي الكريم صلى الله عليه وسلم: "ألا إن هذا الدين متين فأوغلوا فيه برفق، فإن المنبت لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى".

4- في بداية السبق وقدره وترتيبه:

يقصد الزرنوجي بالسبق ما ينبغي لطالب العلم أن يتناول أولاً في الدرس، أي ما ينبغي الابتداء به في التعلم، وما ينبغي أن يسبق إلى جوفه من العلم. فأورد أنه ينبغي الابتداء بما يكون أقرب إلى الفهم والضببط وأبعد عن الملامة وأكثر وقوعاً بين الناس، ويتحرى ألا يكتب شيئاً لا يفهمه فإنه يورث "كلالة الطبع، ويذهب الفطنة، ويضيع الأوقات" ويعتمد في مقدار ما يسبق إلى جوفه على: "قدر ما يمكنه ضبطه بالإعادة مرتين.. ويزيد كل يوم كلمة... بالرفق والتدريج .. وقد قيل السبق حرف والتكرار ألف".

ودعا الزرنوجي طالب العلم إلى بذل الجهد في الفهم من الأستاذ بالتأمل والتفكير لأنه إذا كان "حفظ حرفين خير من سماع وقرين"، فإن "فهم حرفين خير من حفظ وقرين" ويعتمد في ذلك كله على الدعاء والتضرع إلى الله تعالى فإنه يجيب من دعاه ولا يخيب من رجاءه".

ولا يكتفي طالب العلم بمجرد الحفظ والتكرار بل إن عليه " المناظرة" و"المطارحة" و"المذاكرة" بغاية استخراج الصواب، وهذا تنبيه عظيم من الزرنوجي إلى مسألة التعلم الجماعي التي وضع لها أصولاً من قبيل استهداف الحق، واعتماد الإنصاف، والتأني، والتأمل، والابتعاد عن الشغب والغضب، وتجنب التناظر

والنذاكر مع المتعنت غير المستقيم الطبع لأن الطبيعة متسرقة متغيرة والأخلاق متعدية والمجاورة مؤثرة".

وذكر الزرنوجي هنا أنه ينبغي لطالب العلم أن يشتغل بشكر الله باللسان والجنان والأركان والحال، ويعتقد أن الفهم والعلم والتوفيق من الله تعالى ويطلب منه الهداية دعاء وتضرعا ثم إن عليه ألا يطمع في أموال الناس وألا يرجو غير الله.

خاتمة في أمور عامة:

ختم المصنف رحمه الله تعالى مصنفه هذا بذكر أمور جليلة لا غنى عنها لطالب العلم منها:

- في التوكل: "ثم لا بد لطالب العلم من التوكل في طلب العلم على الله ومن تقليل التعلق بالدنيا ومن تحمل النصب والسفر للتعلم".

- في الشفقة والنصح: "وينبغي لطالب العلم أن يكون مشفقا ناصحا مبتعدا عن الحسد والنزاع والمخاصمة والمعاداة وسوء الظن".

- في الورع: "إن الورع باب الانتفاع بالعلم وتيسير التعلم، ومن الورع التحرز عن الشبع وكثرة النوم وكثرة الكلام، والابتعاد عن أهل الفساد والمعاصي"

يا طالب العلم باشر الورعا	وجنب النوم واترك الشبعا
داوم على الدرس لا تفارقه	فالعلم بالدرس قام وارتفعا
يا أيها الناس أنتم عشب	يحصده الموت كلما طلعا
لا يحصد المرء عند فاقتة	إلا الذي في حياته زرعا

:

إن مجموع الوصايا التي عرضها الإمام الزرنوجي تشي بغنى التراث التربوي العربي الإسلامي وبالحاجة الملحة إلى الرجوع إليه تنقيبا وجمعا وتحقيقا وكشفا عن درره المكنونة وكنوزه الخفية عسانا نجد فيها ما نبني به نظرية تربوية نؤصل بها لعمليتنا التعليمية التعليمية عوض العيش على فتات نظريات مقطوعة عن سياقاتنا منبئة عن هويتنا.